العقيدة الإسلامية وأثرها في تحرير الفرد ووحدة الأمة

أ.د/ محمد رشاد عبد العزيز محمود

الاستاذ المساعد بالكلية

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحابته أجمعين .   وبعد :

فلقد كان هبوط الوحي برسالة الإسلام وعقيدة التوحيد أعظم حدث في تاريخ الدنيا قاطبة ، حيث سجل التاريخ وشهدت البشرية - لأول مرة - أمة تخرج للوجود وتعيد صياغة الحياة من جديد بينما لا يزال إنسان العصور الوسطى يغط في جهل مطبق وسبات عميق .

أمة استطاع الرسول ﷺ أن يجعل أساس وحدتها ومصدر قوتها عقيدة التوحيد الخالدة ، بل عاش طوال حياته المباركة من أجل هذه الغاية النبيلة والهدف الاسمى فمنع المسلمين من الجدل في هذه العقيدة وحذرهم من عواقبه الوخيمة . ولذا فقد جاءت شهادة الحق تبارك وتعالى لهذه الأمة بقوله جل جلاله [كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله] (١) .

---

(١) سورة آل عمران : (١١٠)

لقد تفاعلت العقيدة فى قلوب أبناء المسلمين فإذا بهم يصبحون ـ تحت ظلالها ـ أمة واحـــدة تقود البشرية للخير والصلاح وتتربع على ذروة المجد .

كانوا رجالا منذ ملأت العقيدة قلوبهم فجعلت من كل فرد نموذجا مجسما للإسلام يراه الناس فيرون الإسلام[1] .

ومن هنا فقد أدرك أعداء الإسلام قوة العقيدة وأثرها الفعال فى بعث أمة الإسلام وصنع وحدتها ـ مصدر قوتها ومجدها .

ألم تفتح هذه العقيدة قلوبا غلفا وأعينا عميا وآذانا صما ؟

ألم تجعل من مجتمعات الوثنية والشرك والضلال والجهل ، مجتمعات التوحيد والإيمان والعلم والعرفان ؟ ولذا فقد أجمع هؤلاء الأعداء على حسر المد الإسلامى ومحاصرته وتوجيه أفكارهم المسمومة لهذه العقيدة للقضاء عليها أو تشكيك الناس فيها على الأقل . ومن هنا كان هذا الهجوم الشرس « من الشرق والغرب معا : يقول الشيوعيون يجب نبذ العقيدة الإسلامية لأنها عقيدة قديمة بالية محشوة بالأساطير الفارغة . . . ونحن دائبون على تثقيف المسلمين بالثقافة الماركسية بحيث لا يؤمنون بالخرافات والأساطير الإسلامية »[2] .

ويقول المسيو « لوشاتليه » المستشرق الفرنسى :

[إن زحزحة العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها وتفرقة شملهم

---

(١) انظر فصل انتصار محمد من كتاب « دراسات إسلامية » للأستاذ سيد قطب .

(٢) راجع مجلة الدولة والقانون السوفيتية فى عددها الصادر فى كانون الثانى سنة ١٩٥٠ م .

لا تتم إلا ببث الأفكار التى تهدم فكرتهم الدينية الاسلامية المحافظة على وحدتهم وكيانهم][1] .

إن جميع الفلسفات التى ينادى بها أعداء الاسلام على مختلف العصور والأجيال تعمل على تقويض دعائم الاعتقاد بوجود إله واحد بغض النظر عن البديل المقترح : فمنها من يقترح ألوهية المادة ، ومنها من ينادى بألوهية الإنسان ، ومنها من يجعل الغريزة محور تفسير الوجود [2] .

ولقد نجح الأعداء بفكرهم وفلسفاتهم فأبعدوا المسلمين عن عقيدتهم وفتحوا عليهم بوابات الجدل فإذا بأبناء العقيدة الواحدة يتنازعون ويتقاتلون حتى وصل الأمر بهم إلى ما نراه من واقع مر أليم . ومن هنا تعالت أصوات المخلصين بالاصلاح وتنادوا كيف نغير من هذا الواقع الحزين ونحن كما يقول « مالك بن نبى » (لا نزال نسير ورؤوسنا فى الأرض وأرجلنـــا فى الهواء)[3] .

كيف نعيد الأمة إلى وحدتها ونؤلف بين قلوبها ونمنع عنها تكالب الأعداء عليها . ؟

كيف يعتدل الكيان الاسلامى فيسير فى الطريق الصحيح ؟

والطريق الذى ينبغى أن نسير فيه هو أن نصغى إلى ما قاله إمام دار الهجرة ذات يوم (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) ولقد صلحت الأمة بعقيدة التوحيد .

---

(١) ص ٧٥ التبشير والاستعمار : مصطفى الخالدى وعمر فروخ .
(٢) ص ٤ الأيدلوجيات والفلسفات المعاصرة للأستاذ : أنور الجندى دار الاعتصام .
(٣) ص ٣٧ شروط النهضة دار الفكر طبعة ثالثة سنة ١٩٦٩ م .

ومن هنا فسوف نتحدث فى هذا البحث عن هذه العقيدة وعن أثرها فى تحرير الفرد ووحدة الأمة ، وسوف نستعرض عقائد ما قبل الإسلام كى تتضح عظمة الإسلام فبضدها تتمايز الأشياء كما يقولون ، ولقد كان سيدنا عمر رضى الله عنه حريصا على تعريف الجاهلية للناس لا لأن الجاهلية دين ، بل لأن حقيقة الاسلام وعقيدته إنما تتألق وتزدهر إذا عرفت الظلمات والمظالم التى جاءت هذه العقيدة لتبديدها ومحو شاراتها ومن أجل ذلك كان رضى الله عنه يقول وإنما تنحل عرا الاسلام عروة عروة إذا عاش فى الاسلام من لا يعرف الجاهلية .

ولقد كانت الدنيا قاطبة تعيش فى دياجير هذه الجاهلية حتى جاء الاسلام بعقيدته الهادية . هذا وبالله التوفيق .

دكتور

محمد رشاد عبد العزيز

العقيدة قبل الإسلام

على امتداد رقعة العالم الفسيح . . وعلى طول هذا الكون الذى خلقه فاطر السموات والأرض . . وعلى مسيرة عشرات السنين ، وبعد أن ضلت الانسانية عن هدى الله تعالى وقبل أن تشرق على الأرض شمس الاسلام وتهدى إلى البشرية الدين الخاتم - وجدت عدة عقائد وعبدت - من دون الله - عدة آلهة ، وانتشر الشرك وذهبت كل أمة من الأمم تقدس معبودا حسب أهوائها أو وفق وسوسة شياطينها .

وكان هـــذا - دون ريب - أساس الفرقة والاختلاف بين الأمم والشعوب بل والسبب المباشر للعداوة البغضاء والحرب وإراقة الدماء .

يقول الدكتور بتلر - فى كتابه فتح العرب لمصر[1] - مبينا أن الصراع بين الأمم والجماعات أساسه الاختلاف فى العقيدة - يقول ما يلى : « إن القرنين الخامس والسادس كانا عهد نضال متصل والرومانيين ، نضال يزكيه اختلاف فى الجنس واختلاف فى الدين ، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس ، إذ كانت علة العلل فى ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوفيسية ، وكانت الطائفة الأولى - كما يدل عليها اسمها - حزب مذهب الدولة الامبراطورية وحزب الملك والبلاد ، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة - وهى إزدواج طبيعية المسيح - على حين أن الطائفة الأخرى - وهى حزب القبط المنوفيسيين - أهل مصر - كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها وتحاربها حربا عنيفة فى حماسة هوجاء ويصعب علينا

(١) ترجم هذا الكتاب الأستاذ محمد فريد أبو حديد .

أن تتصورها أو نعرف كنهها فى قوم يعقلون بل يؤمنون بالانجيل[1] .

هذا وإليكم أهم هذه العقائد بايجاز فى بعض الأمم والممالك .

أولا ـ العقيدة فى الهند :

كان لسعة بلاد الهند واختلافها فى التضاريس والجو والجدب والخصب، ثم اختلاف أنواع الناس الذين عمروا هذه البلاد ، كان لكل هذا أثره فى اختلاف عقائد الهند فعبدت هناك الحيوانات كما عبدت أيضا الأشجار .

وتعتبر ثمار جوز الهند من أكثر الفواكه قدسية ، فهى رمز النماء ورمز الخصوبة ، ولذا فانها تحفظ فى الهياكل المقدسة كى يقدمها رجال الدين والرهبان للنساء اللاتى يرغبن فى الذرية[2] .

والهندى عندما كان يتوجه إلى الأشجار بالعبادة إنما كان يتوجه ـ فى أغلب الأحايين ـ إلى الأرواح التى يظنها تأتى إليها أو تحل فيها .

وكان الوسيط بينه وبين الأرواح فى العبادة والتقديس هم الكهنة ومن هنا أخذ الكهنة تلك المكانة التى لا يدانيهم فيها أحد فأنزلهم الشعب منازل الآلهة .

يقول غوستان لوبون : وهيهات أن تجد هندوسيا لا يعبد عدداً من الآلهة فالعالم عنده زاخر بها حتى إنه يصلى للنمر الذى يفترس أنعامه[3] .

---

(١) انظر سيد قطب ص ٣٦ خصائص التصور الاسلامى

(٢) ص ٤٠٩ ـ ٤١٠ من كتاب الغصن الذهبى تأتى جيمس فريزر ترجمة باشراف د . أحمد أبو زيد ج ١ . الهيئة المصرية للترجمة والتأليف والنشر .

(٣) ص ٢٦٨ حضارة الهند وانظر ص ٢٨ من أديان الهند الكبرى د . أحمد شلبى الطبعة الرابعة .

ولقد وجدت في الهند كذلك عقيدة وحدة الوجود التي تأثر بها فيما بعد بعض المفكرين.

ووجدت كذلك عقيدة التناسخ وهي من العقائد الأساسية في الهند ومن لم يقل به يعتبر خارجا عن الديانة الهندية ، فالأرواح الباقية تتردد لذلك في الأبدان البالية بسبب افتنان الأفعال إلى الخير والشر ليكون التردد في الثواب منها على الخير فتحرص على الاستكثار منه ، وفي العقاب على الشر والمكروه فتبالغ في الابتعاد عنه ، ويصير التردد من الأرذل إلى الأفضل دون عكسه[1] يقول البيروني « كما أن الشهادة بكلمة الاخلاص شعار إيمان المسلمين ، والتثليث علامة النصرانية والاسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية فمن لم ينتحله لم يكن منها ولم يعد من جملتها[2] .

ثانياً ـ عقائد الفرس :

وكما رأينا تعدد العقائد في الهند فإننا سوف نرى أيضا هذا التعدد عند الفرس .

فلقد عبدت الشمس لأنها في نظرهم مصدر نفع ، وكان نظرهم قاصراً ، وتفكيرهم عاجزاً حيث وقفوا عند الشمس ولم يستطيعوا أن يصلوا إلى خالق الشمس سبحانه وتعالى[3] .

كذلك وجدت عقيدة الزرادشتية التي يرى معتنقوها أن الكون إلها

---

(١) الفلسفة الهندية ـ تقديم د . عبد الحليم محمود وآخر طبعة أولى ص ٥٠ .

(٢) ص ٢٤ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة .

(٣) الوحدانية للدكتور عبد الفتاح دويدار ص ٥٢ .

وأن نبي هذا الإله إنما هو زرادشت ، كما يعتقد أصحابها أن لهذا الإله خصما هو دونه في الرفعة وهو أهرامان الذي يمثل آله الشر ولسوف يهزم في رأيهم على مر الزمن ، إذا تلاشت الرذيلة من فوق الأرض[١] .

ثم ظهر بعد ذلك مزدك الذي نادى بالبدأين القديمين النور والظلمة والايمان بهما ، والنور في رأيه إنما يفعل بالعقيدة ، أما الظلمة فإنها تفعل بالخبط والاتفاق ، ومن عقيدته القضاء على المال والنساء لأنهما ـ في رأيه ـ سبب الحقد في هذا العالم[٢] ، ولذا فقد نادى مزدك بالشيوعية فلا ملكية ولا زواج بل تباح كل الأموال وكل النساء لكل الناس .

ثالثاً : العقائد في أفريقيا :

تسيطر العقائد على الحياة في أفريقيا شأنها في ذلك كل شعوب العالم ، فكانت عقيدة التثليث منتشرة في هذه البلاد ، وكذلك العقيدة القائلة بأن هناك إلها كبيراً يتربع على القمة وتحته آلهة أخرى لها تأثير وهي واسطة بين الناس وبين الآله الأكبر .

وحينما لا تفلح هـــذه الآلهة فمن الضروري ومن الحكمة الاتجاه إلى كبيرهم .

إنهم لا يتوجهون إلى هذا الآله الكبير بادىء ذي بدء لأنه من الغباء ـ حسب اعتقادهم ـ إهمال القوى الأقل شأنا لأنها ـ في نظرهم أكثر قربا

---

(١) الفلسفة الشرقية الدكتور غلاب ص ١٨٨ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ٥٤ تحقيق عبد العزيز الوكيل الناشر مؤسسة الحلبي بالقاهرة .

وأقوى ملاحظة ، وبالتالى يمكنها أن تسبب متاعب أكبر من الله ، كما يمكنها أن تكون أكثر خدمة فى حالة الأزمات[1] .

والخضوع للآلهة فى أفريقيا يختلف من بيئة إلى أخرى وللبيئات تأثير كبير على عقول الناس وعلى حياتهم بل وفى معتقداتهم أيضا .

لذا نرى الأفريقى الذى يعيش بجوار البحر ينظر إلى الحوت نظرة إجلال وإكبار ، فهو يمثل لديه آله البحر . فإذا ما عاش هذا الأفريقى فى قلب الصحراء مثلا فإن هناك الجن الذين يتربعون على عرش الاكبار والإجـــلال .

ومن ثم فقد انتشر ـ تبعا لهذا كله ـ السحر والتعاويذ حتى يمكن السيطرة على هذه القوى إذا ما غضبت .

وهكذا عاش الأفريقى كما عاش غيره من بنى الانسان فى ضلال مبين .

رابعاً : العقائد فى الجزيرة العربية :

كانت الجزيرة العربية تعج بركام العقائد والتصورات المختلفة ، فقد تسربت إليها اليهودية والمسيحية بعـــد التبديل والتغيير والتحريف والانحراف .

كما انتقلت إليها عقائد الفرس وغيرها مضافا إلى هذا كله وثنيتها الخاصة .

ويشير القرآن الكريم إلى كثرة هذه العقائد واختلافها وعدد الآلهة المعبودة وذلك فى آيات متعددة .

---

(١) الأديان فى أفريقيا المعاصرة ص ٤٢ ـ تأليف مندلسون ترجمة إبراهيم أسعد ، دار المعارف ١٩٧١ م .

وإذا ألغى الانسان عقله وفكره واتبع هواه فسوف تكون عقيدته في ضلال مبين ، وتبعا لذلك سوف يعبد الحجر والشجر والشمس والقمر والجن والملائكة . . بل والانسان والحيوان أيضا .

وهذا ما حدث فعلا وشهد به التاريخ ، فلقد اتخذ العرب حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء ، ونصبوها آلهة يتمسحون بها ويطوفون حولها ويخطبون ودها ويبذلون في كل شيء في سبيل رضاها .

يقول صاحب كتاب الأصنام : « كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به »[1] .

وروى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به[2] .

كما عرفوا عبادة الكواكب يقول صاحب « طبقات الأمم » كانت حمير تعبد الشمس وكنانة القمر وتميم الدبران ولخم وجرام المشترى وطيء سهيلا وقيس الشعرى العبور وأسد عطارد[3] .

كما زعموا أن الملائكة بنات الله .. مع بغضهم للبنات .. ثم عبدوا

---

(١) الكلبي ص ٢٢ طبعة ثانية .
(٢) انظر كتاب المغازى « الجامع الصحيح » .
(٣) صاعد ص ٤٣٠ .

الملائكة معتقدين أن لها عند الله شفاعة لا ترد وأنهم يتقربون بها إليه سبحانه وتعالى .

وفى هذا يقول الله تعالى : (وجعلوا له من عباده جزءاً إن الانسان لكفور مبين ، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون وقالوا لوشاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون)[1] .

(ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون)[2] :

ولقد عبدوا الجن كذلك ، يقول الكلبى فى كتاب الأصنام : « كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن » .

وقد قال الله تعالى (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)[3] .

ولقد كان من العرب من يدين بعبادة الأرواح ويؤمن بأثرها وباستقلالها وانفصالها عن الجسد بعد الموت واتصالها بالقبر ورفرفتها فوقه إذا كان صاحبها رجلا مقتولا ولم يؤخذ بثأره .

---

(١) سورة الزخرف ١٥ ـ ٢٠ .

(٢) سورة يونس : ١٨ . (٣) سورة سبأ : ٤٠ - ٤١ .

والأرواح فى رأيهم قدرة على الظهور للإنسان بأشكال مختلفة وقد تحل فى بعض الحيوانات ومن هنا ظهرت عقيدة التشاوم والتفاؤل والخوف من بعض الحيوانات(١) .

واقد كانت الكعبة التى بنيت لعبادة الله الواحد تعج بالأصنام إذ كانت تحتوى على ثلاثمائة وستين صنما ، غير الأصنام الكبرى فى جهات متفرقة ، ومنها ما ذكر فى القرآن الكريم بالاسم ، كاللات والعزى ومناه وهبل الذى نادى أبو سفيان باسمه يوم أحد قائلا : أعل هبل(٢) .

هذه لمحة عن بعض العقائد التى انتشرت فى الجزيرة العربية . فإذا أضيفت إليها بقايا العقائد السماوية التى حرفها أهلها زورا وبهتاناً ، فبعض أتباع هذه العقائد يجعل من الانسان إبناً لله تعالى ليكون شريكا له فى الألوهية كما فعلت اليهود والنصارى ، وكما حكى فى القرآن الكريم عنهم (وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون)(٣) .

وبعضهم يجعل من الانسان إلهـا كما صنع النصارى وكما حكى عنهم الله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم)(٤) .

وبعض آخر يذهب إلى التثليث وذلك مثل ما ذهب النصارى فى الله

---

(١) روح الدين الاسلامى لطبارة ص ٩١ - ٩٢ طبعة ١٨ دار العلم للملايين بيروت .

(٢) انظر خصائص التصور الاسلامى لسيد قطب ص ٤٠ طبعة رابعة دار الشروق.

(٣) سورة التوبة : ٣٠ .

(٤) سورة المائدة : ١٧ .

وعيسى ومريم ، وقد بين القرآن الكريم ضلالهم (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد)[٢] .

أقول إذا أضيف ذلك وغيره إلى ما كانت تموج به الجزيرة العربية من نحل باطلة وعقائد زائفة وبقايا ديانات محرفة ، أدركنا ثقل هذا الركام الكبير الذى كان يجثم على ضمير البشرية فى كل مكان والذى كانت تنبثق منه أنظمتهم وأوضاعهم وآدابهم وأخلاقهم وأفكارهم ، وأدركنا كذلك مقدار التيه الشامل الذى كانت البشرية كلها تخبط فيه والذى ظلت تخبط فيه أيضاً كلما انحرفت عن منهج الله وعقيدة الإسلام ، واتبعت السبل فتفرقت بها عن سبيل الله الواحد المستقيم ، وإذا كانت هذه المعبودات الباطلة قد عبدت من دون الله فهل منها ما يصلح للألوهية ؟ .

إننا إذا استقرأنا ما توهمه الناس شريكا لله فى ألوهيته لن نجد أحداً من هؤلاء الشركاء المزعومين من ترشحه حالته ليكون فى هذا الوجود شيئا ذا قيمة ، لقد عبد القدماء أحجاراً اقتطعوها من سطح الأرض ، فهل يصح فى خلد عاقل أن حجرا من الأرض يصلح أن يكون إلها ؟ .

وعبدوا صنفاً من الحيوان ، وقدسوا نسله كما يفعل الهندوك إلى اليوم .

فهل هناك حيوان أو عجل مهما زاد لحمه وكثر شحمه يصلح للألوهيه ؟ .

إن الوثنيين سفهوا أنفسهم عندما هووا بها إلى هـذا الدرك من الانحطاط .

ولقد أدعى بعض الناس الألوهيه كفرعون - حاكم مصر - ومثل

---

(١) سورة المائدة : ٧٣ .

هذا (الذى حاج إبراهيم ربى فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت) فظن هذا الجاهل أن السلطة المطلقة التى ينعم بها والتى تجعله يقتل من الرعية من يشاء ويبقى من يريد، ظن ذلك مسوغ طموح للألوهية .

وبعض الدهماء من اليهود والنصارى ضلوا فى فهم أنبيائهم ورفعوهم إلى مصاف الآلهة مع أن هؤلاء المرسلين ليسوا إلا عبيداً وهو بين . فمن الحماقة أن نظن فى بشر مهما علا شأنه أنه خلق كوكبا من الكواكب(١) .

ولماذا نذهب بعيداً وأحدهم لم يخلق ذبابة أو مادونها ، فكيف يعبد مثل هذا من دون الله رب العالمين ؟

إن هذا يتبين لنا بوضوح عندما نقرأ قول الله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)(٢) .

(١) انظر عقيدة المسلم ص ٤٢ — ٤٣ — الشيخ محمد الغزالى .
(٢) سورة الحج : ٧٣ .

أثر اختلاف العقائد فى حياة الامم

العداوة والحرب :

كان لإختلاف العقائد فى الأمم والجماعات بل وفى الأمة الواحدة أثر كبير فى اختلاف القلوب وتعارض الأفكار ، وتنازع الأفراد وتناحر الجماعات . فكثرت الحروب وسفكت الدماء واستعبد الانسان أخاه الانسان فلقد كثر بين أصحاب العقائد والنحل الجدل والنزاع ، يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه فى « الأم » : « فكانت المجوس يدينون غير دين أهل الأوثان ويخالفون أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى بعض دينهم ، وكان أهـــل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ يختلفون فى بعض دينهم »[1] .

وفى هذا المجال يقول الله تعالى (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)[2] .

ومن البديهات أن اختلاف العقائد من أهم أسباب الفرقة والتمزق والعداوة والبغضاء والتطاحن والمقاتلة وهذا ما أثبته الواقع وشهد به التاريخ ، فقد كان الصراع رهيبا بين المؤمنين والكافرين ، أو بين أرباب العقائد

---

(١) انظر جـ ٤ ص٩٦ من كتاب الأم للشافعى نقلا عن تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية : مصطفى عبد الرازق .

(٢) سورة البقرة : ١١٣ .

المتباينة فى كل زمان ومكان ، ويكفى أن نعود إلى كتاب الله لنقف ـ فى كثير من آياته ـ على مظاهر هذا الصراع .

وأن قصة فرعون مع السحرة لأبلغ دليل فى هذا المجال . فهذا فرعون والسحرة فى دائرة كفره وطاعته ـ يعدهم ويمنيهم ويجزل لهم العطاء ويجيبهم بلطف حينما قالوا (أإن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين)[1] .

ولكن بعد أن خرجوا من دائرته وأصبحوا فى دائرة الايمان بالله رب العالمين إذ به يتوعدهم ويهددهم (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى)[2] بل ويسارع فى تنفيذ وعيده ، يقول ابن عباس وغيره من السلف : « أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء بررة »[3] .

ودليل آخر . . قصة أصحاب الأخدود هؤلاء الذين ضحوا فى سبيل عقيدتهم بحياتهم وأصبحوا مثلا يضرب فى روعة الايمان المستعلى على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من إرهاق الجسم وجاذبية الأرض[4] ، فاستعذبوا الموت وصبروا على النيران المشتعلة الفاتلة التى ألقوا فيها محتسبين ذلك عند الله العزيز الحميد فمن أجل المبادىء العليا تهون الصعاب ، ومن أجل العقيدة الحقة تزهق الأرواح ، وتراق الدماء . وها هو القرآن الكريم يصور هذا كله مبيناً سبب نقمة أعداء الله

---

(١) سورة الشعراء ٤١ - ٤٢ .
(٢) سورة طه : ٧١ .
(٣) ص ٤٨٧ المجلد الثانى من مختصر ابن كثير .
(٤) انظر ص ٥٢٩ جـ ٨ فى ظلال القرآن ـ سيد قطب .

على المؤمنين به جل جلاله : (والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)[1] .

ولن نتحدث طويلا عن الحروب التى شهدتها الجزيرة العربية - فى غيبة العقيدة السماوية والواحدة يكفى فقط أن نشير إلى الحروب التى شهدتها الساحة العربية صباح مساء والتى كادت تدمر كل شىء وجعلت الشعار العام آنذاك .

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه تهدم
ومن لا يظلم الناس يظلم[2]

وانتشرت شريعة الغاب ، وكثرت المعارك ، حتى كان العربى يحارب ابن عمه وأقرب الناس إليه إذا لم يجد من يحاربه يقول قائلهم .

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا[3]

انتشار الفقر والخراب :

ونتيجة لذلك اضطربت الحياة الاجتماعية . وتملطت القوى المالية والأيدى المحركة للناحية الاقتصادية ، وانتشر الفقر وكثرت الفاقة وأخذ الجوع منهم كل مأخذ ، واشتدت عليهم الأيام ، حتى قتل العربى ابنته مخافة أن

---

(١) سورة البروج : ١ - ٨ .
(٢) من معلقة الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى .
(٣) من قصيدة للقيط بن يعمر .

تشاركه طعامه وشبابه ، وحتى أكل العربي الميتة التي تعافها الأنفس وهاهو التاريخ ينقل إلينا قول جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي وهو يفرق بين الجاهلية والإسلام[1] .

« كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف حسبه ونسبه وصدقه وعفافه فدعانا إلى الله لتوحيده . . . » الخ .

وها هو القرآن الكريم يصور حال العربي عندما يبشر بفتاه لاعتقاده أنها لا تستطيع الحصول على قوتها بسلاحها وقوة ساعدها .

(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون)[2] .

ولذا فقد جاء نهى القرآن الكريم صريحا حتى لا تتكرر مرة أخرى هذه المأساة الانسانية المروعة (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم)[3] (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم)[4] .

وإذا كان التاريخ قد سجل هذا كله في المجتمع العربي قبل ظهور الاسلام فقد سجل أيضا ما كان يحدث في غير هذه المنطقة من بقاع العالم .

---

(١) انظر في ذلك سيرة ابن هشام وفجر الاسلام لأحمد أمين ص ١٢٥ .
(٢) سورة النحل ٥١ - ٥٢ .
(٣) سورة الأنعام : ١٥١ .
(٤) سورة الاسراء : ٤١ .

ويكفى أن نشير إلى الحروب الطاحنة التى وقعت بين الفرس والروم[1] والتى أشار إليها القرآن الكريم حينما أخبر المسلمين بانتصار الروم على الفرس بعد أن هزموا هزيمة ساحقة ما كان أحد يظن أن تقوم لهم بعدها قائمة (ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون)[2] .

كما سجل التاريخ ما كان يحدث من نزاع وتصادم بين أتباع عقيدة وأتباع أخرى إذا لم تقدس معبوداتهم من حيوانات وغيرها .

وهكذا وبسبب اختلاف العقائد ، ضلت البشرية طريقها وسقطت فى مستنقع الظلم والجهل والطغيان ، فانتشرت الخرافات ، وكثرت الأوهام وعمت الفوضى والخراب ، ولف الكون ظلام ليل دامس طويل ، وتساءلت الانسانية : أما لهذا الليل الطويل المظلم من نهاية ؟

أجل لقد كانت البشرية تعيش فى واقع أليم ترزح تحت خرافات وثنية طاغية تضع فوق رءوس الناس آلهة من حجارة منحوتة يسجدون لها ويهتفون بأسمائها ويستقسمون بها ويستشيرونها فيما يأتونها ويذرون من الأمور .

ونصرانية ضالة : ضلت عن سواء السبيل فجعلت الآلهة ثلاثة وقالت عيسى ابن الله ونسبت إليه الخلق والتدبير والحساب للخلائق فى يوم الدين واتخذت من رهبانها وقديسها أربابا من دون الله وتمرغت فى أوحال الوثنية وتورطت فى أوزارها .

---

(١) انظر نحو القرآن للبهى ص ٣٦ .

(٢) سورة الروم : ١ ـ ٣ .

ويهودية ملعونة سعت فى أرض الله بالفساد وأشعلت فيها نيران الفتن ونقضت عهد الله وميثاقه ، أوغلت فى المادية وتلاعبت بنصوص التوراة وحرفتها عن مواضعها استجابة لشهوة الرؤساء واتخذت صلف العصبية والاستعلاء بغير الحق ديناً لها .

ومجوسية مجسمة تدين بعبادة إلهين اثنين ويقدسون النار ويجعلون لها بيتا يحجون إليه ويقيمون سدنة له يذكون ناره ويضرمون لهيبها .

وصابئة يعبدون الكواكب والنجوم ويعتقدون تأثيرها ويرجون رضاها ويطلبون ودها ويخشون غضبها .

ودهرية ملحدة لا يدينون ولا يعبدون غير شهواتهم ولا يؤمنون ببعث ولا حساب ولا يعرفون غاية وراء هذه الحياة الدنيا(1) .

يقول الامام ابن تيمية مصوراً ما كانت عليه البشرية من عقائد ضالة : « أعلم أن الله سبحانه وتعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الخلق على فترة من الرسل وقد مقت أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل ماتوا ـ أو أكثرهم ـ قبل مبعثه والناس إذ ذاك أحد رجلين : إما كتابى معتصم بكتاب إما مبدل وإما منسوخ أو بدين دارس بعضه مجهول وبعضه متروك ، وإما أمى من عربى وعجمى مقبل على عبادة ما استحسنه وظن أنه ينفعه ، من نجم أو وثن أو قبر أو تمثال أو غير ذلك . والناس فى جاهلية جهلاء من مقالات يظنونها علما وهى جهل وأعمال يحسبونها صلاحا وهى فساد وغاية البارع منهم علما وعملا أن يحصل قليلا من العلم الموروث عن الأنبياء المتقدمين قد اشتبه عليهم حقه بباطله ، أو يشتغل

---

(1) راجع كتاب « دعوة » ص ٢٤٧ للدكتور محمد الهراس .

بعمل القليل منه مشروع وأكثره مبتدع لا يكاد يؤثر فى صـلاحه إلا قليلا ، أو أن يكدح بنظره كدح المتفلسفة فتذرب مهجته فى الأمور الطبيعية والرياضية ، وإصلاح الأخلاق حتى يصل - إن وصل - بعد الجهد الذى يوصف إلى نزر قليل مضطرب لا يروى ولا يشفى من العلم الإلهى باطلة أضعاف حقه - إن حصل - وأنى له ذلك مع كثرة الاختلاف بين أهله وتعذر الأدلة عليه والأسباب »[1] .

عقيدة التوحيد :

كانت حاجة البشرية - إذن - إلى عقيدة ترسم عليها حياتها وشاء الله أن تكون هذه العقيدة هى عقيدة التوحيد التى اختتم الله بها رسالات السماء ، وبدأ عهد جديد فى تاريخ البشر فعلى ضوء هذه العقيدة وضحت العلاقة بين الانسان وخالقه جل جلاله وتبدلت عقائد الناس واتجاهاتهم الفكرية ونظرتهم إلى الكون وإلى الطبيعة وإلى الانسان وإلى الحياة على أساس وحدانية الله وإيمان برسله وكتبه وملائكته [آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله][2] إلى آخر ما هبط به الوحى على النبي الكريم الذى سارع فأعلن دعوة التوحيد [قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون][3] وجعل يسير فى طرقات مكة داعياً - من خلالها الدنيا قاطبة - يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ثم يخبرهم

(١) ص ٦٣ - ٦٤ من اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية المجلد الأول تحقيق د . ناصر العقل الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٣) سورة آل عمران : ٦٤ .

بأنهم لو قالوها وأخلصوا لها لملكوا بها العرب ولخضعت لهم العجم ولسكانوا بها ملوكا فى الجنة .

ونداء التوحيد الذى تردد على لسان النبى الخاتم هو نفسه الذى تردد من قبل فى سمع الزمن ونادى به الرسل والأنبياء جميعاً يقول الإمام ابن تيمية : « وقد أرسل الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب بالتوحيد الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)[1] وقال تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون)[2] وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة)[3] وقال تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)[4] .

وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعتهم[5] .

الوحدانية والفطرة :

ومما لا شك فيه أن الانسان يولد وهو مفطور على الوحدانية لأنها

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٥ .
(٢) الزخرف : ٤٥ .
(٣) النحل : ٣٦ .
(٤) المؤمنون : ٥١ - ٥٢
(٥) انظر مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ / ٢٥ طبعة المنار سنه ١٣٤١ هـ .

من الفطرة أو ضمن الفطرة التى فطر الله الناس عليها [فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم][1] .

إن إبداع هذا الكون ومافيه من مظاهر وآيات تنطق بوحدة خالقها الأكبر دليل على أنه من صنع ذات سرمدية واحدة .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

إن الناس لو رجعوا إلى الفطرة السليمة لوجدوها تنطق بالتوحيد وهذا ما يقرره القرآن الكريم [وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه] يقول البيضاوى : ذهب عن خواطركم كل من تدعونه فى حوادثكم إلا إياه وحده فانكم حينئذ لا يخطر بالكم سواه فلا تدعون لكشفه إلا إياه : إننا نجد شدة الخوف قد أزالت عارض الشرك وأظهرت صفاء الفطرة[2] ويقول صاحب كتاب الاسلام وحاجة البشرية إليه][3] معبراً عن صوت العقل إننا لو فرضنا وجود أكثر من إله كان لا بد أن يكون لكل منهما العلم من الإرادة والقدرة مايخالف بداهة ما الآخر من هذه الصفات وهذا يكون من شأنه أنه يؤدى إلى الاختلاف فى الأفعال وتدبير العالم ومن ثم يكون لابد من فساد السموات والأرض ومابينهما ، بل قد يؤدى إلى عدم وجود هذا العالم بسبب المتضارب بين هذه الصفات التى تثبت لكل منهما مايكون عنها من الآثار ، ولكن العالم بجميع أجزائه موجود على أحسن نظام فلا بد أن يكون خالقه وموجده إلها واحداً لا شريك له] وصدق الله إذ يقول [لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا]

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) ص ٢٧٧ الوحدانية د عبد الفتاح هريدار .

(٣) د محمد يوسف موسى ص ٩٤ .

[ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض] .

إن التفرد هو السمة الأساسية فى الألوهية فإذا حصل العدد وحصل التنازع وإذا حصل التنازع اختل نظام الكون أو لم يوجد الكون أصلا لكن المشاهد أن الكون موجود وجوداً فى غاية الاتقان أو الأحكام إذن الله واحد لا إله غيره[1] ويقول شارح الطحاوية[2] وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره من أول دليل على أن مدبره إله واحد وملك واحد ورب واحد لا إله للخلق غيره ولا رب لهم سواه .

عالمية الدعوة :

إن عقيدة التوحيد كانت الضربة القاصمة الحاسمة التى حطمت عن الانسان أغلاله ومزقت قيوده وهوت بالمتألهين عن عروشهم الملحدة .

ولقد وضع الله تعالى فوق كاهل الرسول ﷺ أمانة تبليغ دعوة التوحيد إلى الناس كافة منذ بدأ يخاطبه وينزل عليه (يا أيها المـــدثر قم فأنذر وربك فكبر)[3] .

إن القرآن يدعوه أن يهتف باسم الله وحده (وربك فكبر) .

أن كل ولاء وطاعة وكل توقير وتقديس لن يكون إلا لله وحـــده (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا)[4] .

---

(١) ص ٦٦ د . سيد عبد التواب العقيده فى ضوء القرآن .

(٢) ص ٨٥ المكتب الاسلامى طبعة خامسة : بيروت .

(٣) سورة المدثر : ١ - ٣ .

(٤) سورة الاخلاص ١ - ٤ .

وها هـو الرسول ﷺ يردد دائما ـ وحتى يستقر فى القلوب ـ قول الله تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفـواً أحد)[1] وقوله جل جلاله (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العـالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[2] .

ربط المسلم بربه :

وأخذ الرسول الكريم يحيط عقيدة صورة من صور التوحيد بسياج قوى متين ولكى يمنع الانسان من الوقوع فى أية صورة الشرك أخذ يعلم البشرية كلها : أن الأمر كله لله تعالى وأن العبادة جميعها له وحدة جل جلاله وأن الدون منه سبحانه ، وأن الخير بيده وأن الملك له وانه على كل شيء قدير (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير)[3] .

فالله وحده هو الذى يمنح ويمنع (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم)[4] .

والله وحده هو الذى بيده الرزق (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) (٥)

---

(١) سورة المزمل : ٨ - ٩ .
(٢) سورة الأنعام ١٦٢ - ١٦٣ .
(٣) سورة آل عمران ٢٦
(٤) سورة فاطر : ٢ .
(٥) سوره فاطر ٣ .

والله وحده هو الذى يمتلك حق التشريع الذى لا يرد (إن الحكم إلا لله وحده أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم)[1] .

(ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) .

ومن هنا فإن حياة المؤمن كلها يجب أن تتجه إلى الله وحده فهو الذى بيده مفاتيح الغيب فمن ذهب يلتمس معرفة الغيب عند غير الله تعالى فقد أشرك (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)[2] وهو سبحانه الذى يعظم وحده ومن هنا فإن الحلف بغير الله تعظيم لغير الله ومن ثم فهو شرك (من حلف بغير الله فقد أشرك)[3] .

ويأخذ الرسول ﷺ فى تعميق عقيدة التوحيد فى قلوب المسلمين ويربطهم بربهم ويوثق صلتهم به جل جلاله فى كل لحظة من لحظات حياتهم أو خفقة من خفقات قلوبهم ، فإذا هم المسلم بالنوم مثلا فليقل ما قاله الرسول الكريم (باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)[4] وإذا استيقظ المسلم من نومه فليقل بقول الرسول (الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)[5] .

وإذا خرج من بيته يذكر قول الرسول ﷺ (باسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله) وإذا فرغ من طعامه قال كما علمنا الرسول

---

(١) سورة يوسف : ٤٠ .
(٢) أخرجه الامام أحمد فى مسنده .
(٣) رواه الترمذى والحاكم عن ابن عمر وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير .
(٤) متفق عليه .
(٥) متفق عليه .

الكريم (الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآونا وجعلنا مسلمين) .

وإذا شاهد الهلال يبزغ قال : (الله اكبر - اللهم أهله علينا بالامن والإيمان والسلامة والاسلام - ربي وربك الله)[1] .

وهكذا يجب أن تدور حياة المسلمين جميعا فى توحيد الله وذكره جل جلاله وفى طاعته وعبادته وحده ، وحفظ تعاليمه وتطبيق شريعته والعمل على مرضاته وإسلام الوجه له (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[2] .

---

(١) أخرجه الترمذى وصححه ابن حبان (كتاب الكلم الطيب) .
(٢) سورة البقرة ١١٢ .

محافظة الرسول على العقيدة

عاش الرسول الكريم طوال حياته يغرس عقيدة الإسلام وتعاليمه الخالدة فى نفوس المسلمين ، ويعمل على تقويتها فى قلوبهم .

والمحافظة عليها وحتى لا تختلف القلوب ، أمرهم أن يبتعدوا عن الجدل كى لا يختلفوا كما اختلفت الأمم السابقة ، فتذهب ريحهم ويصبح بأسهم بينهم شديدا .

ولاشك أن الجدل فى الأمور العقدية يورث العداوة بين المتجادلين فلقد جاء فى كتاب مختصر جامع بيان العلم وعن العوام بن حوشب عن إبراهيم التميمى فى قوله تعالى : (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون)(١) .

قال : (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء) الخصومات بالجدل فى الدين(٢) ، ومن ثم فقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين من الوقوع فى هذا الأمر الخطير ، وقد غضب عليه السلام عندما رآهم يتراجعون فى القدر فوقف عليهم قائلا : (ياقوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض وأن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ولكن نزل القرآن نصدق بعضه بعضا ماعرفتم منه فاعملوا به وماتشابه فآمنوا به) .

وقال أبوهريرة : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن

---

(١) سورة المائدة ١٥ .

(٢) انظر ص ٢٧١ تمهيد من لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، مصطفى عبد الرازق .

نتنازع فى القدر فغضب حتى أحمر وجهه ثم قال : أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا)(١) .

تمسك الصحابة بنهج الرسول :

ولقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على نهج الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يتجادلوا فى شيء من العقيدة ولم يذهبوا إلى التفتيش عن المتشابه ولم تكن بهم إلى التأويل حاجة ، فقد أخذوا قضايا العقيدة كما وردت وأجروها كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن يبحثوا عن معانيها بعقولهم ، بل إن التاريخ ليثبت أنهم رضوان الله عليهم لم يسألوا النبي الكريم عن ذات الله وعن صفاته لأنهم عرفوا الله تعالى – كما علمهم القرآن والرسول – بعظيم قدرته وبراهين صنعه وآثار خلقه وعميم رحمته : (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير)(٢) .

أجل لم يسأل الصحابة رسولهم الكريم عن شيء من الأمور العقيدية ، لأن الله تعالى قد بينها بيانا كاملا : يقول الإمام ابن تيمية .

فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل قد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعذر إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس ، وهو من أعظم ما أقام الله به

---

(١) انظر صون المنطق للسيوطى وذم الكلام للهروى نقلا عن مصطفى عبدالرازق فى التمهيد ص ٢٨٢ .

(٢) سورة الروم : ٥٠

الحجة على عباده بالرسل الذين بينوه وبلغوه ، وكتاب الله الذى نقل الصحابة ثم التابعون لفظه ومعانيه والحكمة التى هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتملة من ذلك كله على غاية المراد وتمـــام الواجب والمستحب)(١) .

ويجزم ابن القيم بأن الصحابة لم يتجادلوا فى مسائل العقيدة فيقول :

« لقد تنازع الصحابة فى كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المسلمين وأكمل الأمة إيمانا ، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا فى مسألة من مسائل الأسماء والصفات والافعال بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب العزيز والسنة النبوية كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلا ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها ، بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالاجلال والتعظيم »(٢) ويقول صاحب كتاب « التنبيه »(٣) (إن من أصول أهل السنة الايمان بالقدر خيره وشره وترك المراء والخصومات فى الدين) .

(لقد كان المسلمون الأوائل على عقيدة واحدة امتلأت بها قلوبهم فاتجهوا إلى الطريق العملى نصلحت أحوالهم وأقاموا حضارة لم تشهد البشرية لها مثيلا ، لأنهم لم يضيعوا أوقاتهم ـ كالأمم الغابرة ـ فى المناقشة والجدل ولذا فقد قهروا كسرى وقيصر وتربعوا على عرش المجد وجاءتهم الدنيا صاغرة لمحافظتهم إلى نهج الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) ص ٢٩ من كتاب درء التعارض بين العقل والنقل

(٢) ص ٥٥ جـ ١ أعلام الموقعين طبع منير الدمشقى وانظر الخطط والآثار للمقريزى جـ ٣ ص ١٨١

(٣) أبو الحسن الملطى ص ١٢

أثر عقيدة التوحيد

إن البشرية ـ بفطرتها ـ تحلق فى أجواء مشرقة من توحيد الله تعالى فما كانت كلمة التوحيد نبتاً مشلولاً فى تربة خبيثة ، ولكنها نبت تمتد أصوله فى القلب الخصب وتظهر آثاره ظلالا وأرفة وثمـــرات شهية ومن هنا استطاع الرسول الكريم أن يعلن قيام دولة التوحيد كى يصوغ حياة الناس ـ على مبادئها ـ من جديد بعد أن توارت عن الوجود طواغيت كسرى وقيصر . وكان لهذه العقيدة آثار بعيدة المدى فى حياة الفرد والأمة نلمسها فيما يلى :

أولا : حرية الإرادة :

كانت هذه العقيدة هى المنطلق الأكبر لتحرير الإنسان أو بعبارة أدق : تحرير إرادته : فالإنسان الذى لا يخضع لحجر ولا يسجد لصنم ولا يخاف كاهناً أو يرهب ساحراً أو يجزع من سلطان ويأنف أن يكون عبد الإنسان آخر فلا يقبل الذل أو يرضى بالهوان من أحد مهما كان شأنه أو وصفه أو منزلته ـ هو إنسان تحررت إرادته وانطلقت عزيمته تصنع المعجزات . وفرق كبير بين الإنسان الذى يتصور أن الله لا يحفل به ولا يشعر بوجوده أو لا يعلم بوجوده أصلا كما يقول بعض الفلاسفة (١) وبين الإنسان الذى يحس ويعلم أن الله تعالى هو خالقه ورازقه ومالك أمره فى الدنيا والآخرة جميعاً . هناك فرق كبير بين الذى يتعامل مع إلهين متنازعين ـ كما يقول الفرس ـ أو مع آلهة متفرقة كما تزعم الوثنيات الأخرى ـ وبين الذى يتعامل مع إله واحد له منهج

---

(١) أرسطو ومن تابعه .

واحد . يعلم عباده كيف ينالون رحمته ويدخلون جنته ويسعدون برضاه : إن استقرار عقيدة التوحيد فى ضمير الجماعه المسلمة الأولى هو الذى أنشأ هذه المجموعة الفريدة الممتازة فى تاريخ البشريه كله ومن ثم صنع الله بهم فى هذه الأرض ماصنع من الصلاح والعمار ومن الرفعة والطهارة ومن التقـــدم والمدنيه بما لم يسبق ولم يلحق فى تاريخ بنى الإنسان(١) يقول الإمام محمد عبده فى إعلاء التوحيد بشأن الفرد(٢) .

تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة وأطلقت إرادته من القيود التى كانت تعقدها بإرادة غيره . سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية أو أنها هى كإرادة الرؤساء والمسيطرين : أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القيود والأحجار والأشجار . . . وبالجملة فقد اعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين .

صار الإنسان بالتوحيد عبد الله خاصة حرا من العبودية لكل ما سواه فكان له من الحق ما للحر على الحر، لا على فى الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل إلا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته .

---

(١) ص ١٨٤ خصائص التصور الاسلامى سيد قطب ـ دار الشروق طبعة رابعة .

(٢) رسالة التوحيد ص ٦٥ - ٦٦ .

ثانياً : إخوة في العقيدة :

ومن مقتضيات عقيدة التوحيد كذلك أن يكون الناس إخوة متحابين فربهم واحد ، ودينهم واحد ، ورسولهم واحد ، وكتابهم واحد ، وعقيدتهم واحدة وقبلتهم واحدة وعباداتهم واحدة ، وقد ألف الإسلام بين القلوب ووحد بين أفئدة أبنائه وجمعهم حول العقيدة الحقة الصادقة وأصبح الأخاء العام هو الرباط المتين والدعامة القوية التي بنوا عليها علاقاتهم وتعاملهم ، فكان المسلم - نتيجة لهذه الأخوة - يقدم لأخيه في العقيدة أغلى ما عنده وأثمن ما عنده ، بل ويؤثره على نفسه فها هو سعد(١) بن الربيع يعرض نصف ماله وإحدى زوجتيه على عبد الرحمن ابن عوف كي يتزوجها بعد انقضاء عدتها ، ولكن ابن عوف يرفض هذا العرض السخي الكبير، ويقول لأخيه في العقيدة : بارك الله لك في أهلك ومالك ولكن دلني على السوق لابتاع (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)(٢) .

فهل شهد التاريخ في حقبة المتتابعة مثل هذا السخاء النادر ؟ لقد أدرك المسلمون أن قرآن ربهم يبين لهم أن علاقة العقيدة والدين أقوى من علاقة الدم والقرابة .

فعندها طلب نوح عليه السلام من ربه أن يغفر لابنه وأن يشمله برحمته وعلل طلبه هذا بأن ابنه من أهله ، فإن الله لم يستجب لطلبه ، ولم يحقق أمنيته ، بل وينكر الله تعالى على نوح أن يكون ابنه في عداد أهل

---

(١) انظر سيرة ابن هشام .

(٢) الحشر : ٩ .

نوح وجماعته إذ جماعته أو مجتمعه على الحقيقة يتكون من المؤمنين به وبرسالته، وليس من أقربائه وذى رحمه فى الدم والعلاقة الأسرية (١) (قال يا نوح أنه ليس من أهلك أنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم أنى أعظك أن تكون من الجاهلين(٢).

أن العلاقة فى مجتمع المؤمنين هى علاقة إيمان بالله، علاقة العقيدة الواحدة ومن هنا جاء — ليقرر هذه الحقيقة — قوله الله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون(٣) وقول رسول الله ﷺ (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته)(٤). وقول عليه السلام (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً(٥).
وكان من دعائه ﷺ وهو يناجى ربه فى آخر الليل (اللهم أنا شهيد أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن العباد كلهم إخوة(٦).

وفى مجال التطبيق وضع الرسول الكريم مبدأ التآخى موضع التنفيذ فى المدينة الفاضلة التى أقامها آخى عليه السلام بين المهاجرين والأنصار وكان ذلك الأخاء قرابة اجتماعية تجعل الأخ يعين أخاه فى الله وفى المجتمع كما يعين أخاه فى الدم والقرابة، وأن المؤاخذة التى سنها النبى ﷺ سنة

---

(١) ص ٧٨ القرآن والمجتمع د / محمد البهى، مكتبة وهبه.
(٢) سورة هود: ٤٦.
(٣) سورة الحجرات: ١٠.
(٤) البخارى جـ ٣ ص ١٦٨.
(٥) مسلم جـ ١٦، ص ١١٨ بشرح النووى.
(٦) سنن أبى داود جـ ٢ ص ١٧٤.

باقية لم يوجد ما يدل على أنها حكم وقتى وهى صالحة ، لكل زمان فهى صالحة لأن تطبق فى كل مجتمع صغير ليتم التجانس بين آحاده، والتعاون على أسس من المودة الواصلة(١) .

والأخوة هى أصدق تعبير عن الحقوق والواجبات الإجتماعية وهى أقوى ما يبعث فى النفوس معانى التراحم والتعاون والتآزر والتعاطف وتبادل الشعور والإحساس مما يحقق للمجتمع المثالية التى تخلص به للخير ، وتبعد به عن الشر(٢) وتجعل من المسلمين على اختلاف الأمكنة والأزمنة وحدة راسخة الدعامة شامخة البناء ، لا تنال منها العواصف الهوج .

هذه الأخوة هى روح الإيمان الحى ، ولباب المشاعر الرقيقة التى يكنها المسلم لإخوانه حتى أنه ليحيا بهم ويحيا لهم ، فكأنهم أغصان انبثقت من دوحه واحدة ، أو روح واحدة ، حل فى أجسام متعددة(٣) .

ثالثاً : أمة واحدة فى ظلال عقيدة التوحيد :

كان مبدأ الإخاء فى الله وفى ظل عقيدة واحدة هو الدعامة الكبرى التى شيد المسلمون عليها وحدتهم الشاملة ، وأقاموا فوقها صرح تضامنهم الكامل .

فقد وحدت عقيدة التوحيد بين القلوب ، وجمعت الصفوف وحددت الأهداف وبينت الغايات ، ونظر كل فرد إلى أخيه المسلم

(١) التكافل الاجتماعى فى الإسلام ص ٩٧ الشيخ محمد أبو زهرة .
(٢) الإسلام والتكافل الاجتماعى ص ٦ الشيخ محمود شلتوت .
(٣) ص ٢٠٦ من خلق للشيخ محمد الغزالى .

الذى اتفق معه فى العقيدة وفى المصير - فاطمأن إليه ووثق فيه ودنا منه روحياً فاستطعتم الجميع نداء القرآن الكريم (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين)(١) .

وفهموا معنى قوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم(٢) .

وسمعوا ووعوا أحاديث الرسول الكريم (المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً) (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (٣) (يد الله على الجماعة) . وحفظوا قول الله تبارك وتعالى (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون(٤))وقوله جل جلاله (وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)(٥) وفهموا قول الحق (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)(٦) الآية .

يقول الإمام الطبرى فى تفسير هذه الآية : يعنى اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم - التى من بها عليكم - حين كنتم أعداء فى شرككم ، يقتل بعضكم بعضاً عصبية فى غير طاعة الله ولا طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فألف الله بالإسلام بين قلوبكم ، فجعل

---

(١) سورة الأنفال : ٤٦ .
(٢) سورة آل عمران : ١٠٥ .
(٣) أخرجه البخارى : الأدب ٢٧ .
(٤) سورة الأنبياء : ٩٢ .
(٥) سورة المؤمنون : ٥٢ .
(٦) سورة آل عمران : ١٠٣ .

بعضكم لبعض إخواناً بعد أن كنتم اعداء ، تتواصلون بألفة الإسلام واجتماع كلمتكم عليه(١).

حقيقة وواقع :

ليس للمسلمين إذن من جامع أو رابط غير العقيدة الإسلامية وما يمكن أن يجمع القلوب إلا عقيدة فى الله تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية والثارات القبلية والأطماع الشخصية والرايات العنصرية وتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال(٢).

إن وحدة العقيدة توحد تصور الأمة للوجود والحياة والقيم والأعمال والأشياء والأحداث والأشخاص وترجع إلى ميزان واحد تقوم به كل ما يعرض لها فى الحياة وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج الله فى الأرض(٣).

فوحدة العقيدة تنطوى على وحدة الفكر والثقافة والأخلاق كما تتضمن وحدة الشريعة والإمامة : وها هو ابن خلدون يفسر سر قدرة العقيدة على توحيد الجماعات المتفرقة والمختلفة من البشر فيقول (وسره إن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف وإذا انصرفت إلى الحق (أى إلى دين الله) ورفضت الدنيا والباطل (أى كل فلسفة أو مذهب يخالف عقيدة الإسلام) وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن

---

(١) جامع البيان جـ ٧ ص ٧٧

(٢) سيد قطب فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٣

(٣) المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٧

التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة فعظمت الدولة(١) ثم يستشهد بالآية الكريمة (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم)(٢) إن تاريخ الأمة الإسلامية يشهد بأننا لم نتحد على الجنس أو غيره وإنما قامت أمتنا على أساس الدين وقام عالمنا الإسلامى على أساس العقيدة الواحدة والإيمان العميق والصلة الروحية الكاملة وكان أوسع عالم عرفه التاريخ وكانت الشعوب التى تكون هذا العالم أقوى أسرة عرفها التاريخ (٣).

فقد انصهر المسلمون بأجناسهم العديدة فى بوتقة الإسلام فكان من بين الصحبة الأولى لنبى الإسلام بلال الحبشى وسلمان الفارس وصهيب الرومى ثم تكررت هذه الظاهرة الرائعة مرات عبر التاريخ لأن الإسلام يقوم على عقيدة « تعبد الناس كلهم لإله واحد فيكونوا إذن على الحقيقة لا على المجاز ولا على الكذب متساويين جميعاً وأحراراً جميعاً وكرماء جميعاً(٤).

فالأمة الإسلامية أمة واحدة بحكم القرآن الكريم، ومعنى وحدة الأمة أن دينها واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن الشريعة واحدة(٥).

---

(١) المقدمة الفصل الخامس ص ١٤٢.

(٢) سورة الأنفال : ٦٣ .

(٣) أبو الحسن الندوى : ص ٤١٩ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

(٤) محمد قطب ص ٤٤ : قضايا الفكر الاسلامى الندوة العالمية للشباب الاسلامى سنة ١٩٧٨ .

(٥) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٩٤.

أثر هذه الوحدة :

ولقد أدركت هذه الأمة الواحدة عبء المسئولية الملقاه على كاهلها فخرجت - تحت ظلال العقيدة - تطهر الدنيا مما علق بها من أوضاع وأرجاس وطواغيت بشرية نصبت نفسها- دون وجه حق - آلهة أوشبه آلهة يسومون الناس سوء العذاب .

يقول صاحب « دراسات إسلامية » :

ولقد انتصر محمد يوم صاغ من فكرة الإسلام شخوصاً وحول أيمانهم بالإسلام عملا وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفا ولكنه لم يطبعها بالمداد .

على صحائف الورق ، إنما طبعها بالنور على صحائف من القلوب ، وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطى وتقول بالفعل والعمل ماهو الإسلام الذى جاء به محمد بن عبد الله من عند الله(١) .

ومن هنا فقد كانت ثقتهم فى الله كاملة وأنه جل جلاله سيحقق لهم ما جاء فى قوله تعالى :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)(٢) .

وقد أدركوا أن استخلاف الله لهم فى الأرض لن يتحقق إلا إذا

---

(١) سيد قطب فصل : انتصار محمد بن عبد الله .
(٢) سورة النور : ٥٥ .

توحدوا تحت راية العقيدة الإسلامية ونشروا دين الله فى الأرض بالحكمة والموعظة الحسنة ورفعوا لواء العلم أصل كل حضارة وتقدم ولذا فإن الشعوب كلها فتحت لهم القلوب ودخلت فى دين الله أفواجا تنعم بالسعادة والمحبة .

يقول سيد يلوت فى كتابه « تاريخ العرب » :

« كان المسلمون فى القرون الوسطى متفردين ن العلم والفكر والفنون وقد نشروها أينما حلت أقدامهم وتسربت عنهم إلى أوربا فكانوا سببا لنهضتها وارتقائها) (١) .

---

(١) نقلا عن كتاب تربية الأولاد فى الاسلام .

خاتمة

عندما حافظ المسلمون على وحـــدتهم ولم يتجادلوا فى أمور عقيدتهم ، تربعوا على قمـة المجد وقدموا الخير والصلاح للبشرية قرونا عديدة ، ولـكن سرعان ما تركوا نهـج نبيهم فتفرقت صفوفهم وكثرت أحزابهم وتصارعوا بالحجـة والبرهان حينا وبالسيف والسنان فى أكثر الاحايين فضاعت قوتهم بضياع وحدتهم يقـول ابن رشد :

(فإن الصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال هذه الأقاويل دون تأويلات فيها ومن كان منهم وقف على تأويل لم ير أن يصرح به ، . . وأما من أتى بعدهم فإنهم لمـا استعملوا التأويل قل تقواهم وكـثر اختلافهم وارتفعت محبتهم وتفرقوا فرقا)(١) . ومن هنا وجد أعـداء الاسلام الفرصة سانحة للعمل ضد الإسلام وعقيدته ووحدة أبنائه حتى وصل الأمر إلى ما نراه من هذا الواقع المر الأليم .

ويوم يشيد المسلمون وحدتهم من جديد لا على أساس من جنس أو قومية أو وطنية بل على أساس عقيدة التوحيد يوم ترفرف راية الاسلام من جديد وتعود حضارته لتقدم للبشرية ما تفتقده اليوم جميع المناهج والمذاهب والأنظمة والفلسفات فى الأرض كلها بلا استثناء ومن ثم يـكون لهم دور قيادى جديد ، إن عقيدة الاسلام اليوم قد أصبحت من ألزم الضروريات بل ومن أوجب الواجبات فى العصر الذى نعيش فيه يعج بشتى التيارات ومختلف الأفكار حتى أطلق عليه عصر الصراع « الأيدلوجى » .

---

(١) انظر فصل المقال فيما بين الحـكمة والشريعة من الاتصال

ولن يثبت المسلمون فى حلبة الصراع الفكرى ودر الآراء المسموعة والحملات المغرضة إلا إذا التفوا حول عقيدتهم عندئذ سوف تتهاوى قلاع الباطل إذا ما شاهدت أضواء الحق تشع من جديد (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض)(١) .

هـذا وبالله التوفيـق ؟

دكتور
محمد رشاد عبد العزيز

---

(١) سورة الرعد : ١٧ . .